ـ الفَصْلُ الثَّالِث :

نَقْدُ الرُّوَاة

حوالى مُنتصف القرن الثانى ؛ نشطت حركة جمع الشِّعر القديم وتدوينه ؛ وكان القائمون على هذه الحركة من عُلماء اللُّغة والأدب ؛ ذوى مشارب مُتعدِّدة .

فمنهم : أبو عمرو بن العلاء ؛ أحد القُرَّاء السبعة .

ومنهم : الأصمعىُّ عبد الملك بن قُرَيْب ؛ الذى شُغِفَ بجمال اللُّغة العربيَّة والشعر العربىِّ وغاص فى دقائقهما .

ومنهم : أبو عُبَيْدَة مَعْمَر بن المُثَنَّى ؛ الذى اشتهر بحفظ الأخبار ؛ واتُّهِمَ بالشُّعوبية ؛ وقيل : إنه كان يتتبَّعُ مثالب العرب ؛ ولذلك عنى عنايةً خاصةً بنقائض الشُّعراء الأُمويين الثلاثة : جرير ؛ والفرزدق ؛ والأخطل ؛ لما احتوت عليه من سِبَابٍ شنيعٍ .

وتخصَّص فى رواية الشِّعر رجالٌ ؛ مثل خلف الأحمر ؛ الذى اتهم هو نفسه بأنه لم يكن أميناً دائماً فيما يرويه ؛ ولكن مُحَمَّد بن سلاَّم الجُمحىّ ((٢٣٢هـ)) صاحب ((طبقات الشُّعراء)) يقول عنه :

((أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت الشعر ؛ وأصدقه لساناً ؛ كُنَّا لا نُبالى إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً أن لا نسمعه من صاحبه .)) .

وكتاب ((طبقات الشُّعراء)) هذا ؛ هو أوَّلُ نَصٍّ يُصوِّر لنا النقد وقد استوى علماً مُتميِّزاً من عُلُوم العربيَّة .

على أن هذا العلم كان وثيق الصِّلة بسائر العُلُوم التى كانت كلها ناشئة آنذاك ؛ وتظهر هذه الصلة فى مُلاحظات نحويَّة ولُغويَّة وعروضيَّة عنى ابنُ سلاَّم بروايتها وتسجيلها ؛ كما تظهر فى مُقدِّمة ((الطبقات)) ؛ التى تُعَدُّ مرجعاً قيِّماً لنشأة النَّحو ؛ كما أن الكتاب كله مرجعٌ قَيِّمٌ لنشأة النَّقد ؛ والنقد فى هذه المرحلة هو عمل أولئك الرُّواة الذين عنوا بتمييز الصحيح من المنحول فيما يُحمل إليهم من شعر ؛ ومن أجل ذلك كان هذا النقد جُزئيًّاً محضاً ؛ يتتبَّع مذاهب الشُّعراء فى أشعارهم ؛ ويُمَيِّز خصائص كل واحدٍ منهم في ألفاظه أو معانيه .

....

وأعُودُ فأقُول ـ وفى الإعادةِ إفادة ـ :

جدَّت فى الحياةِ الإسلاميَّة أحداثٌ وأُمُورٌ غيَّرت من النَّزعةِ الأدبيَّةِ واللُّغويَّة تغييراً عظيماً ؛ فقد أصبحت اللُّغة بالتَّعَلُّمِ لا بالطَّبعِ والسَّليقة ؛ وأصبحت العربيَّة دراسة وصناعة ؛ بعد أن كانت بالفطرةِ والسَّجِيَّة ؛ وإذا كانَ ذلكَ كذلك ؛ فالأدبُ والنقدُ ـ والحالةُ هذه ـ يُكتسبانِ اكتساباً ؛ وهكذا أصبحنا نرى نُقَّاداً يُمكنُ ـ بل يجبُ ـ جعلهم فى زُمْرَةِ النُّحَاةِ واللُّغويين ؛ عندَ ذكرِ هؤلاء أو أُولئك ؛ وترتَّب على ذلكَ أيضاً : أن نرى صُوَراً مُختلفةً ؛ ومناهجَ

مُتعدِّدةً ؛ وأساليبَ مُتباينةً فى النَّقدِ الأدبىِّ .

....

عَوْدٌ عَلَى بَدْء:

لم يكن غريباً أن يقصر هؤلاء النُّقاد الرُّواة اللغويون عنياتهم على الشُّعراء الجاهليين والإسلاميين؛ وألاَّ ينظروا فى شىءٍ من شعر المُحدَثِين الذين نشأوا فى عصرٍ اضطربت فيه اللُّغة وشاع اللحن.

على أن عنايتهم بشعر القُدماء لم تكن راجعةً إلى أسباب لُغويَّةٍ فقط؛ بل كان لها جانبها الذوقىُّ أيضاً.

يقُول أبو عمرو بن العلاء عن أشعار المُحدثين: إنها كنقط العروس؛ تذهب رائحتها بعد قليل؛ وكأبعار الظباء؛ تَشُمُّ لها ريحاً طيِّبةً أول عهدها؛ ثم تعود إلى رائحة الأبعار؛ أما أشعار القُدماء فإنها كالمسِّك؛ كُلَّما حرَّكته ازداد طِيباً.

كان الذوق غير المُعلَّل هو السمة الغالبة على هذا النقد؛ كما كان السمة الغالبة على النقد فى الجاهليَّة؛ وابن سلاَّم يُقرِّر ذلك صراحةً؛ فبعد أن يُحدثنا فى مطلع كتابه أن للشعر صناعة كغيرها من الصناعات؛ تُعين عليها كثرة الدِّراسة؛ ويختص بها فريقٌ من النَّاس كاختصاص غيرهم بالجهبذة

بالدِّينار والدِّرهمِ أو البصر بغريب النخلِ أو بأنواع المتاع.

وتظهر الصبغة التأثُّريَّة فى أحكام ابن سلاَّم نفسه؛ فهو لا يُعَلِّل استجادته لما يختار من الأبيات أو القصائد؛ وإذا عرض للموازنة بين الشُّعراء؛ حرص على أن يذكر ما احتج به أصحاب كل شاعر؛ فأثبت لهؤلاء المحتجين من

الذاتيَّة ما أثبته لنفسه؛ وتجنَّب أن يَرُدَّ خلافهم إلى مقياسٍ موضوعىٍّ عام.

وعباراته فى وصف مذاهب الشُّعراء عبارات أدبيَّة؛ كثيراً ما تُصوِّر وقع

الشِّعر فى نفسه ؛ دُون أن تُحدِّد صفات الشعر الموضوعيَّة .

على أن كتاب ابن سلاَّم هو أوَّلُ محاولةٍ لتصنيف الشُّعراء ؛ والتصنيف عمليَّةٌ أساسيَّةٌ فى كُلِّ جهدٍ علمىٍّ .

وإذا كان ابن سلاَّم فى تقسيمه للشُّعراء إلى جاهليين وإسلاميين ؛ لم يزد على أن اتَّبع تقسيماً سار عليه الناس فى شُئُون الحياة كُلِّهَا ؛ وإذا كان ترتيبه كل قسم على طبقاتٍ بحسب منازل الشُّعراء إكثاراً وإحساناً ؛ قد التزم عُرْفَاً سار عليه الرُّواة اللغويون من قبله ؛ وأسهم فى تقليد ((الموازنة)) الذى عَطَّلَ البحث عن قيمة الشعر فى ذاته ؛ فإن إفراده ((شُعراء المراثى)) ؛ و ((شُعراء القُرى العربيَّة)) ؛ و ((شُعراء يهود)) بأقسامٍ خاصَّةٍ - وإن لم يُبَيِّن عِلَّة هذا الإفراد - ؛ يدلُّ على تنبُّهٍ مُبكِّرٍ إلى العوامل الثلاثة المُؤثِّرة فى الشعر ؛ وهى :

النفسيَّة ؛ والبيئيَّة ؛ والثقافيَّة .